عودة من المنفى: أسبوع في ملتقى الرياح (1 من 2)

مهمتي... كانت بسيطة: تسليم ظرف بألوان الجمهورية الاسلامية الموريتانية إلى سلطات نواكشوط كل دور السينما هدمت... وتحولت المراكز الثقافية الى بنوك وجيوش المتسولين تخاطبك كأنك مانع للزكاة!

عبد الله حرمة الله*

في كلامنا القديم
كان الشعب يصعد فوق الكتفين
ويهتف للحرية.
في ذلك الوقت.
وفي كلامنا القديم
كان الأمير ما يزال أميرا
ملتحيا ومدهنا بالعطور
وكان الشعب
يضطرب فوق حبل الكلام
***
اضطربنا اضطرابا عظيما
وما اضطرب الكلام.

أمجد ناصر، 1981
كلام مؤجل، «أثر العابر»

بضع سنين من الغيبة، وعقود من الغربة، انسابت بكل خيلاء تحت أضراس ما تبقى من هشيم جسدي المهترئ!

مرح وضجر، غفلة وحزمة من حطب... قرض، ورحيل دائم على سطح القمر! وأعراب ما تبقى من الغجر!

تلك بعض الأشياء التي حوتها حافظة فرشاة أسناني، المسافرة من حي «لا كولين»، حتى بيت أبي، على حافة المشوي الطائعي، بحصيه الجمهورية، ورماده الدداهي!

قبل البعد، كنت في انتظار تعود التأخر! اذ طفقت أوزاري الململمة على عجل تعبث بصبري، الذي ما فتئ يتجدد نفاده.

طال انتظاري، لطائرة الخطوط الجوية الموريتانية، بحثا عن رائحة ذلك الوطن المسافر على كف عفريت، منذ أن لفظني.

أخيرا حطت الطائرة بكل حشمة على مدرج «أورلي» وكأنها بقرة أمي الحلوب، التي طحنتها سيارة بانواكشوط، قبل سفري الأول نحو المجهول.

أجهدت في اقناع نفسي بأن تأخرها، ربما عاد الى يوم الصيام القاسي الذي قضت بعد أن نسيت تناول السحور «ببماكو»، ومع ذلك بدت مستعدة للحاق بالفطور في انواكشوط، حيث تستعيد عرشها، بعد الاهانات المتكررة في المطارات الدولية.

صوت المضيفة كان متميزا: يحيل الى مزيج متوهم بين الزيت والماء، فبعد الآيات القرآنية قدمت لنا طاقم الطائرة، الذي كان يترأسه، الملاح الذي طار بالطائع الى حتفه السعودي.

مباشرة بعد أن استوت فوق الغيوم، بدأ الطيار في حكاية ما حصل مع الرئيس الأسبق، عندما أخبره بحدوث انقلاب على نظامه، السرد كان شائقا، ولم يخلُ من المفاجآت، التي لم تقطع شخير زوجة وزير الطائع الأول، والتي كانت في الرحلة.

لكن، بعض الأطر الشباب، العائدين لتوهم من المنفى، أبدوا اهتماما كبيرا لما تفضل به «الكابتن»، وكأنهم يريدون التأكد مرة أخرى، من زوال معاوية!

بالنسبة لي، كانت الرحلة طويلة، ومقلقة، قضيتها في حالة من العرق الداخلي، الذي عجزت كل ملحقات روحي، عن احتوائه!

لكن الجدل الفقهي، الذي أثار المسافرون، حول وقت الافطار، سرعان ما أحالنا على رسم الغياب الذي بدا هاربا كل ما ابتعدنا عن أجواء الجليد، نحو صحراء يندر فيها الغياب!!

احساسي بالوحدة، جعلني أتصفح دون ملل، صور أميرتي المسافرة في جيبي، الذي ازدحمت فيه تفاصيل غربتي القاتلة!

أمل الانقلاب الأبيض كما تنبأ الأستاذ عطوان، كان حاضرا في ذاكرتي، كنت أحاول جادا تصديقه، رغم خوفي الطفولي من العسكر، ومشاريعهم الديمقراطية! لكن حدسا آخر، دفعني الى رغبة في اكتشاف ما وراء الوعود!

أخيرا قررت وضع حد لهذا الغليان الداخلي، لأني في هذه اللحظات كنت مستعدا لكل شيء الا الموت، فمشواري لم ينته بعد: حلم الديمقراطية، وذرف دمعتين على قبر أمي، التي حلمت يوما، بأن تعيش ما بعد الطائع، كذلك لحية أبي التي غطت تفاصيل وجهه الجميل. مهام تتحدى فصول الموت، في وجود خرافي!

على أية حال، كان سفرا عاديا، رغم رفضي لروتين المغامرات السياحية، التي ترتب الهندام وتسحق الأحلام.

حطت الطائرة، على مدرج مطار انواكشوط، معلنة وصولنا بسلامة. كنت قد أقلعت، عن توهم العودة، قبل أن أتوسل الى صديقي اليوناني، بترتيب رحلة لأشلاء جثماني! مكرها عمدت الى هذه الوسيلة الميتافيزيقية.

كنت أول من هبط من الطائرة، وانواكشوط غارقة في ظلام، صالحني مع النجوم، التي بدت مصرة على البقاء، علها توفق في اعادة القمر الهارب، من فلسفة «الاخصاء»، المنتشرة في هيولى الوطن الجريح، رغم أحلام التضميد!

أجساد وجراح، حرقة وأرواح، بدت تتحرك برتابة الغياب في بهو المطار الذي احتضنني صافحا عن طول غيبتي! حيث بدت بوابة الأرض الصامدة وكأنها خرجت لتوها من حرب مدمرة: بجيش الحمالة «المرقمين»، كما يحدث في أدبيات الابادة، ألواح الاعلان المستلقية على بلاط متسخ، ربما انتظارا لاستفاقة رغبة ما في الاستهلاك، من يدري؟

بعد اجراءات الروتين من طرف الشرطة التي بدت فرحة باستقبال الوفود القادمة من المنفى، ملبية نداء الوطن الناهض من غياهب جب الديكتاتورية.

في المطار

على عتبة المطار الذي بدا آمنا أكثر مما مضى، كان الاستقبال على قدر الفرحة التي جلبتها قوافل المنفى، العائدة الى وطن كانت قد سلبته فيلة بوطأتها الثقيلة! من بين حشود الأمهات، حضر أهلي وغابت أمي، التي كثيرا ما حلمت بأن تعيش، لترى الفيلة في رقصة الوداع، جارة أذيالها المنتوفة، على ايقاع الزغاريد المبحوحة! حميمية اللقاء، كانت وحدها كافية لأطمئن على أن سريرا ينتظرني ببيت أبي، ولن أعرج البتة «ببومديد»! لم أحلم أبدا بعودة بهذا الجمال. لقد كان الحدث بفنية يستحيل على الوصف تناولها، فأمواج الحبور، ونسيم العيون البراقة، تخطف الانتباه، مؤجلة حلقة التدوين الى حين! فثمة احساس يغمر وآخر يغمي، ضحك متواصل، وحرارة تجعل الأجساد ترشح بعنبر الحياة المقبلة بعد طول غياب.

في مثل هذه اللحظات، نتأكد من سذاجة الخطابات «المستقيلة»، التي طالما ادعت، انعدام أي طموح شعبي للتغيير، واهمة من غير اقناع، أن عقيدة «المخزن» جزء من شخصية الموريتاني. لكن ما غاب عن رواد هذه التحاليل «العالمة»، أن التغيير لم يمنحه اليابان، ولم يحتفِ به المنكول! فالأكفاف التي شيدت جسرا معلقا، يذهب ويجيء، متوجا الجمع بعمائم بلورية، من نغم الاحتفاء التلقائي، ليست الا سجعا مرتجلا يحكي، مدى جدية الاحتفاء بتغيير طال انتظاره، بعد أن جفت المراعي، وندر الثريد، قبل أن تتمرغ الكرامة في وحل الارتزاق، معلنة بداية غبن، سلب الروح، قدرة الحلول بالأجساد!

طيلة الطريق المؤدي الى البيت، بيت أبي، كان سيل الأسئلة ينهال علي، ككرات الثلج، في أيامي الأولى من المنفى: كيف كنت تنام؟ ماذا أكلت هناك؟ من هم أصدقاؤك؟ هل أكملت رسالة الدكتوراه؟ وأسئلة أخرى، لكني كنت دائما أرد بابتسامة باترة، لأن قلقهم لم يمنحني قدرة الرد على أسئلة، كانت اجابتي عليها شبه يومية، عبر كتاباتي، التي تأكدت لاحقا أنهم قرأوها، وأعادوا قراءتها بنرجسية شبه جماعية! مما يؤكد أن الفعل الثقافي والومضة الوجودية، يفرضان تكاملا، يلغي كل انفصام محتمل! مع أنهم محقون في هذا الالزام المطمئن على اتزان وجود ما، خصوصا ان كان القسر، قد سلبهم اياه، في بداية يقلقهم احتمال توقفها!

العاصمة، كانت أكثر فوضوية مما مضى، كذلك غرابة المارة! فأجيال عدة، ترعرعت على طول غيابي، لأبدو كسائح، يعرف باسمه أكثر من شكله. لكن دكنة الأرصفة، ودحدحة الدراعة بجلال بدوي، أوقفت ما تبقى من شعري المتساقط، مدغدغة زوايا أطرافي، التي تحكي جغرافيتها تفاصيل معايشة ثرية لهذه الأرض الطيبة: بعض أحداث طفولتي المشاكسة، ومراهقتي الطائشة، كذلك الحب وأحلام الكرتون الوديعة... نسيم الحرية القادم من بعيد، أيقظ احساسا زاهيا برغبة ما في الشروع المباشر في ورشة الاعمار المغرية، عل الأشجار التي بدت صامدة على قارعة الطريق، تجد أنسة تستحق الظل المختبئ، بعد أن هدمت كل دور السينما، وتحولت المراكز الثقافية الى بنوك تنمو خارج الحقل الاقتصادي! جيوش المتسولين، بكل غطرستها تخاطبك، وكأنك مانع للزكاة، باختصار شديد، تأكدت أن هذه الأرض تحتل مكانا معتبرا من قلبي، وأن أهلها، ما زالوا طيبين! بيت أبي لم يبد كما عهدته، كان ترتيبه، يحكي قصة غياب، لم أتعود على معايشتها!

في أروقته فتشت عن زغاريد جدتي احتفاءا بنجل صهرها المدلل، كذلك بسمة أمي الحاضنة، والتي تعودت اشفاعها بعبارتها المفضلة: «رمتكم قريش بأفلاذ كبدها..»، مع أن رائحة هذا الوجود الثنائي طلعت دون تريث من جبهة أبي الطفولية أثناء عودته الحنون على قصة الغياب، بدا صوته مرتجفا في نقله لآخر ما نطقت به «ياي»، كما تعودت أن أناديها احتفاء بولعي باللهجة السنغالية: «قولوا لابني.. حبي، ولا تنسوا غفراني..» كيف يمكن لدموعي أن تقتصد لبقية العمر أمام مشهد كهذا؟ مع أن البكر الذي شاءت الأقدار أن أكون، ينبغي أن يستعير ولو لحين صلابة أبيه التراجيدية! ولوضع حد لهذه المهزلة، شرعت في تقديم الهدايا، علّ الحياة تلحق بنا، عساها تنقذنا من هذا المأتم الجماعي، خصوصا أن الخروف المشوي ينتظرنا غير بعيد من سجادة أبي، التي تعتبر جزءا من ديكور البيت، الذي أبدى بكل فخر فرحته باحتضان، البكر، أو «ولدي»، كما تعودت سيدته مناداتي.

أمام هذه اللقاءات، نتأكد أننا تعودنا على الغياب وأن المنفى أصبح جزءا من حياتنا، وأن الاستعداد للحاق بحياتنا الأخرى، يبدو أصعب من مفارقتها ذات يوم! لكن روعة الوجود تكمن شيئا ما في تناسق هذه التناقضات التي تعير الحياة أبجدية أخرى.. من ناحيتي، تمكنت من التخلص من تعب الغربة، لأعيش من جديد انتقاء فاصلا لدررها الباهية...

كان الأصدقاء، بحضورهم يزاحمون حق أهلي في الانفراد باحتضاني طيلة المقام، وقد كان هذا التنازع مغريا لرغبتي الطادية في الحضن! فالبرد الباريسي أخذ مني جزءا من حرارة الاحتضان وشمس الركضة الأولى على أديم «أفلجيط».

مراسلون بلا حدود

لكن ينبغي أن لا تأخذني حلقات الود من مهمتي الرسمية، والتي كانت موضع سخرية من قبل زملائي الغربيين! فقد اقترحت عليهم مباشرة بعد الانقلاب الأخير، توجيه جملة من التوصيات بخصوص حرية الصحافة الى السلطات الجديدة. فأنا رغم مواقفي السياسية أعتبر أنه في مجال حقوق الانسان ينبغي طرق كل الأبواب. هكذا وفقت في اقناع الهيئة التي توظفني، «مراسلون بلا حدود»، بقطع الخطوة الأولى، لتعبر من جهتها السلطات الموريتانية عن استعدادها لاستقبالي كرسول «لحرية التعبير»، من بين كل زملائي كنت أول من فاجأه هذا الرد السريع، رغم احساسي بالنخوة حيال سخرية زملائي الذين فقدوا كل ثقة في المجالس العسكرية، التي تعودت أن تعد نعيما وتفي رمضاءا!

اذا مهمتي، كانت بسيطة، تمثلت في تسليم ظرف بألوان الجمهورية الاسلامية الموريتانية، كنت قد ابتعته من وراقة باريسية عريقة، الى سلطات انواكشوط، أو على الأقل هكذا تصوره البعض! بالنسبة لي كان للرحلة مدلول آخر، تمنيت أن أوفق في صوابه، لقد كنت أود اهداء صفعة «رقمية» لكل هذه الآراء المتعالية، كل ما تعلق الأمر بالعالم الثالث ومستقبله الديموقراطي، خصوصا وأننا نشهد في الانتاج الأدبي والسياسي حاليا بأوروبا نوعا من النوستالجيا للتنظير العنصري للقرن التاسع عشر، الذي سعى جاهدا الى تبرير ابيولوجي لصحوته المادية والنوم الأزلي لشعوب الجنوب...

المهم، أن مأموريتي ينبغي أن تتم على أحسن ما يرام، اذا لامجال لكل هذه العواطف المصرة على ابقائنا في نواح أبدي على أطلال، تعودت استبدالها كلما درست بأخرى طرية المأتم!

من بين من كانت لي بهم صلة أثناء تحضير هذا السفر، دخلت في اتصال مع الأطول يدا والأصدق لسانا، حدثته عن تفاصيل مهمتي في ليلة من ليالي رمضان، كان القمر يتشفع لي ببياضه المنير أن لا أشعل أضواء عابرة الصحراء التي كان زوج أختي قد وضعها تحت تصرفي، طيلة مقامي بأرض بثيناه. لقد سبق وأن عشت تجربة ديبلوماسية، بسهولة بالغة مع بعض الدول الشقيقة التي مدت لنا يد العون للتخلص من ذلك الذي أثنى ركبتيه على رؤوسنا طيلة عقدين من الزمن!

لكني لم أتهيأ، أبدا، لممارستها مع من يمسكون بشريط الحل والربط بانواكشوط، لأني وبكل بساطة قد تعودت على رميهم بمناجيق الرفض، وللأبد! مهمتي كانت صعبة، رغم أني أمثل منظمة دولية، فهاجس ملاطفة السلطة أقلقني على ما تبقى من شعلتي الأولى الرافضة لكل مساومة مهما كان شكلها أو مضمونها، فواجبي المهني كصحفي، يشدني دون تردد لأنقل مشاغل زملائي المتربصين لحفنة أكسجين قد يمنحها التحول الجديد، دون تردد تغلب المهني على المناضل السياسي، الذي لم يندم لاحقا على حيز التنازل الوارد. مع أن كل هذه المبارزة الداخلية لم يكن لها داعٍ، لأن الطرف الآخر كان اصغاؤه رفيعا وحواره حضاريا، لدرجةٍ خجلي من هذا التجاوب الرمزي في بداية مسلسل تطير منه أغلب الأشقاء، مبدئيا على الأقل فأنا المفاوض القادم من باريس وجدتني في مكانة المستشار ذي الرأي النافذ! لكني حاولت الابقاء على جزء من صرامتي، بصعوبة بالغة، بحكم انتدابي من طرف منظمة دولية وأنا الموريتاني المبهور بما سمعت وشاهدت دون أي وسيط.

محاوري، بعد أن غمرني بضيافته البرمكية، وعدني بايصال الملف الى صومعة الحل والعقد، وأن كل جديد سيصلني دون مماطلة. من هذا اللقاء التحقت بشاطئ المحيط الأطلسي، بحثا عن قوة تمنحني القدرة على كتابة مراسلتي الأولى، الى هيئة تحرير كانت تستعد للاعتصام أمام السفارة الموريتانية بباريس، من فرط قناعتها بمروري الحتمي بالسجان بعد الجلاد! مع فارق التوقيت، انتزعني الهاتف بعد أقل من ساعتين من نوم لم يحضر أبدا، رغم مناشدتي اياه أثناء طلوع الخيط الأبيض على رماد ما كان أسود قبل ساعات! على الخط كان المكتب الباريسي يريد التأكد من أن أناملي لم تقهر لتوصلهم ما كتبت؟

حتى أني أحسست رغبتهم في التأكد من نبرتي الصوتية، قاطعت محدثي معلنا له رقم بطاقتي المهنية، وآخر عمل أنجزته قبل أن أغادر الدائرة العشرين في وجهة أورلي، ضحك كثيرا، تاركا خلفه صدى، بدى كالمعتذر عن عدم معرفته بتقنيات الزغردة، التي يستوجبها المقام . أما الآن فينبغي أن أبدأ جولتي بقاعات التحرير، حيث كان هناك زملاء فرقني بهم المنفى وآخرون التحقوا بالمهنة بعدي، جل الأقلام التي غذت «ربيع التسعينات» سئمت مصادرة لم تمنحهم أبدا الوقت الكافي ليجف حبرهم الدالق. فأصبحوا آباء أسر عاطلين عن العمل أو شعراء يكتبون فيودعون انتاجهم المجهول من طرف غيرهم، سلة الزبالة، بعد أن «عجزوا» عن اللحاق بالمنفى! المهم، تلك صفحة نرجو أن نوفق في طيها برتابة، لكنهم اليوم عادوا، بعنفوان اليوم الأول والحب الأبدي للحرف الذي منعوا معاقرته بشغف جنون لذيذ! هم الآن هنا، والى الأبد.

مدرجات الأرشيف هنا وهناك، كانت تعج برسائل المصادرة التي تعودت وزارة الداخلية ارسالها، حتى قبل اكتمال سحب الصحف! مع أن الأمل في تجاوز هذه الحقبة كان حاضرا، من خلال جموع الشباب الراغبة في خلق ما عجز الشارع عنه طيلة سنوات المصادرة والتكميم.

رغم أني أمثل منظمة دولية، إلاّ ان هاجس ملاطفة السلطة أقلقني على ما تبقى من شعلتي الأولى الرافضة لكل مساومة مهما كان شكلها أو مضمونها، فواجبي المهني كصحافي، يشدني دون تردد لأنقل مشاغل زملائي المتربصين لحفنة أكسجين قد يمنحها التحول الجديد.....

* كاتب وصحافي من موريتانيا يقيم في باريس